الفصل السادس

العصر العباسى

وصف الحيوان

النياق ــ الخيل ــ الأسد ــ الذئب ــ النحل ــ الكلب ــ الديك ــ الفهد ــ الصقر ــ السمك ــ البعوض ــ الطير ــ الهر والجرذان .

انتقل الحكم من دمشق إلى بغداد فاشتدت صلة الحكام بالفرس وحضارتهم وزاد اتصالهم بالتقاليد الأعجمية ، واصطبغت الطبقات الرفيعة فى الشعب بصباغ الحياة الجديدة ، وكان على الشعراء أن يسيروا مع هذا التيار الجديد فحسب ، لولا أن تياراً معاكساً راح ينحو نحو القديم يدفعه الحنين إلى أمجاد العرب ولغتهم ومغانيهم القديمة ، فظهر فى الأدب أنصار لهؤلاء وهؤلاء ، ودخل الوصف فى معمعان هذه المعركة بين القديم والجديد .

والواقع أن الشعراء أخذوا بالقديم والجديد معاً كأنهم يسعون إلى إرضاء الطائفتين ، فظلوا فى بعض الأبواب يقلدون ، وراحوا فى بعضها يجددون ، بل هم حاولوا محاولات بارعة فأخفقوا حيناً وانتصروا حيناً . وسنعرض لوصف الحيوان عندهم لعلنا ننتهى إلى الموازنة بينه وبين ما كان عليه فى الشعر الجاهلى والأموى .

النياق

وقد رأينا وصف النياق والإبل والخيل على ألسنة الجاهليين والإسلاميين ،

يصفها الشعراء ، لأنهم عاشوا على مقربة من البادية، أو لأنهم أرادوا أن يشاركوا فى وصفها أو يبعثوا الحنين إلى ذكرها . فقال أبو نواس يصف ناقته :

ولقد تجوبُ بى الفلاة إذا ... صام النهارُ وقالت العُفْرُ (١)
شدنية رعت الحمى فأتت ... ملء الحزام كأنه قصرُ (٢)
تثنى على الحاذَيْن ذا خصل ... تعماله الشـولان والخطرُ (٣)
أما إذا رفعتْهُ سامـدةً ... فتقول : رنق فوقها نسرُ (٤)
أما إذا وضعته عارضـة ... فتقول : أرخى خلفها سترُ
وتسفّ أحيـاناً فتحسبهـا ... مترسمـاً يقتـاده أثر (٥)

فهذه الناقة تجوب به الفلاة فى الظهيرة وقد اعتدل النهار واستراحت الظباء فى القيلولة ، وهى قوية متينة ، تحرّك ذنبها فتصيب فخذيها ، فكأنه نسر إذا رفعته جادة فى السير ، أو كأنه ستر إذا أرخته . وتدنو من الأرض فكأنها تبحث فى الرسوم عن أثر . وناقة أبى نواس هذه كناقة الجاهليين فى ضخامتها وطول ذنبها وقوّتها ، وفى غرابة مفرداتها ، ولو تركت من غير نسبة إلى شاعر معين لذهب الظن إلى أنها قيلت فى العصر الجاهلى أو الإسلامى .

ووصف مسلم بن الوليد ناقته سريعة قويّة تضرب بذنبها يميناً وشمالا ، وتسرع فى إرقالها ووخدها . ووصفها ابن المعتز فرأى فيها ما يرى الجاهليون فقال :

رأيتُ انهمار الدرّ بين فروجها ... كما عصرتْ أيدى الغواسل أثوابا
كأنّ على حلابهنّ سحائباً ... تجرد من الأخلاف سحاً وتسكابا

---

(١) صام النهار : اعتدل – قالت : استراحت – العفر : الظباء .
(٢) شدنية : منسوبة إلى شدن : فحل باليمن أو موضع فيه – الحمى : موضع الكلأ .
(٣) الحاذين : تثنية حاذ ، وهو جانب الفخذ – الشولان : رفع الناقة ذنبها – الخطر : رفعها إياه مرة بعد أخرى وضربها به حاذيها .
(٤) سامدة : جادة فى سيرها – رنق : حام ورفرف للوقوع .
(٥) تسف : تدنو من الأرض – المترسم : الناظر إلى رسوم الدار .

خوازن نحض فى الجلود كأنما تحمل كثباناً من الرمل أصلابا

فهى قوية ضخمة يسيل الدرّ بين فروجها كما يسيل الماء من الثوب على أيدى الغواسل ، وهى مكتنزة اللحم . كأنّ فى الجلد كثباناً من الرمل ، وقديماً أحبّ العرب النياق الضخمة المكتنزة .

ووصفها فى موضع آخر فأعاد معانى القدماء وصورهم قال :

حتى طويت على أحشاه ناجية كأنما خلقها تشييد بنيانِ

كأن أخفافها والسير ينقلها دلاءُ بئر تدلت بين أشطانِ

لها زمام إذا أبصرت جولته حسبتُ فى قبضتى أثناء ثعبان

إلى هلال تجلت عنه ليلته باريه صوّرهُ فى خلق إنسان

فجعلها ترتع فى مفازة بعيدة ، وهى وثيقة التكوين ضخمة الجسم كأنها بنيان مشيد ، وكأن أخفافها دلاء بئر تدلت بين الحبال . وهذه الصور جاهلية صرفٌ تعلّق بها ابن المعتز فكان شديد الشبه بالأجداد ، وكان شبيهاً بزملائه فى العصر العباسى إذ لم يخرجوا عن حدود القدماء فى وصف الناقة .

الخيل

وصف العباسيون الخيل فأوغلوا فى رسمها كذلك ، وأبو نواس جعلها مطية إلى الصيد ليس غير . وأما أبو تمام فقد أكثر من وصفها فجعلها شديدة الحركة والطيش كأنما خالطها مسٌّ من جنون ، أو كأنها شربت خمراً فهى سكرى :

كأنما خامره أولقٌ أو غازلت هامته الخندريس[1]

عوّذه الحاسد بخلاّبه ورفرفت خوفاً عليه النفوس

فهو يحبه ويعوذه خوف الحسد ، ويرى أن النفوس تميل إليه لجماله . ورسم فى مكان آخر اختيال الفرس وجعله ملآن بالصلف والكبر ، ووصف حوافره

(١) أولق : جنون — الخندريس : الخمر العتيقة .

وصلبه وناصيته . ولونه بالحمرة قد بدا فيها الشيب ، وهو طائش مجنون نشيط ، وبعضه أسود كالدجى وبعضه أبيض كثوب الحرير الفارسى ، قد سالت غرته كما سال الماء :

قد سالت الأوضاحُ سيل قرارة فيه ففترقٌ عليه وملتق (١)
صافى الأديم كأنما ألبسته من سندس برداً ومن إستبرق (٢)

وبعد هذه السرعة التى تفوق الريح فى جريانها ، يرسم الشاعر غرة الفرس وأذنه ثم كفله الململم وذنبه الضافى . وصور منخره كالكير ، يخوض الوغى فى حلة حمراء ، ويسبح فى غمرة الموت ورحى المنية تطحن .

ووصفه الشاعر فى ديوانه كذلك فقال : بأنّ الحصى تطير من تحته لسرعته ذا ما حثه السوط . ورسم لجمه الحديدية يلوكها كما تلوك الفتاة مساوكها ، ويتبختر كأنه يمشى بكم مُسبل ، محجل فى قوائمه غير اليمين .

والبحترى وصف الخيل فأبدع فى تعداد سماتها وشياتها . قال إن جواده جارى الجياد فطار سبقاً ، جذلان تلطمه غرّة كأنها البدر فى تمامه ، وأذناه متقدمتان كأنهما عينان يرى بهما . يختال ويكب ويشب ، طويل العنان والحزام ، معاطفه لينة كأنها الخيزران ، وفى غرته بياض كأنه الشيب فى مفرق رجل لاه عابث غزل . وأما صهلته فكأنها الرعد فى ازدحام الغمام ، فالعجائب تقسمت محاسنه .

ورسمه فى قصيدة أخرى فجعله كالهيكل فى ضخامته ، يهوى فى سرعته كما تهوى العقاب حين ترى صيداً ، وينتصب كالصقر ، تحسب البدر فى جبينه ، وذنبه طويل يسحبه كالرداء ، صافى الجلد كصفاء السيوف فى حمرة كخمر معتقة . وصهيله كالموسيقا بل يفوق نبرات المغنين المشهورين . وهو جذلان ينفض خصلة الشعر فى غرته ، وشجاع يغشى الوغى فلا يحوج إلى جنة أو ترس ، ليس

---

(١) الوضح : الغرة — القرارة : القاع المستدير يجمع فيه ماء المطر .
(٢) السندس : ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج — الإستبرق : الديباج الغليظ .

له مقتل ، وإنما يقتل حيث يصيب . وجسده فى لونه كأنه نمال متتابعة سوداء وحمراء :

مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى ... لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل
وإذا أصاب فكل شىء مقتل ... وإذا أصيب فما له من مقتل

وهو فى قصيدة ثالثة : أشقر ساطع يغشى ظلمات الحرب فينيرها كالكوكب المتأجج ، وشياته كأنها مطلية بالدماء القانية ، يهيجه السوط كما تهيج ريح الجنوب حريق النبت ، جذلان أبداً ، تحسده الجياد إذا مشى ، دقيق الحصر ضامر البطن ، عالى المتن وقوائمه وثيقة .

وهذه الصور تتلخص فى سرعة الفرس وطيشه ، ولون جلده ، وغرته ، وضخامته ، وذنبه الطويل ، ودقة خصره ، وضمور بطنه ، وعلو متنه . وهى لا تزيد على ما عند الجاهليين فيما رأينا من وصف الخيل ، بل إن الجاهليين سبقوا فى هذا الميدان ، ولم يصنع المتأخرون كبير أمر ، إلا فى وصف الصلف والكبر .

الأسد

أصبح الأسد فى العصر العباسى موضوعاً للّهو والصيد والرياضة ، وشارك الخلفاء والأمراء فى ذلك ، وروّضوا خيولهم على لقائه رابطة الجأش ، فجعلوها تعيش إلى جانب قفصه ومرّنوها على رؤيته كل يوم . وقد وصف الشعراء حفلات الصيد هذه ، ورسموا صوراً مختلفة للأسد .

أما البحترى فقد ذكر الفتحَ بن خاقان وخروجه إلى صيد الأسد فقال :

غداة لقيتَ الليثَ والليثُ مخدرٌ ... يحدّد ناباً للّقاء ومخلبا
يحصّنه من نهر نيزك معقل ... منيعٌ تسامى روضُه وتأشبا[1]

(١) تأشب الروض : تجمع والتف بعضه على بعض .

إذا شاء غادى عانة أو غدا على ... عقائل سرب أو تقنص ربربا (١)
يجرّ إلى أشباله كلّ شارق ... عبيطاً مدمى أو رميلا مخضبا (٢)
شهدتُ لقد أنصفته يوم تنبرى ... له مصلتا عضباً من البيض مغصبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً إذا الهيّابة النكس كذبا (٣)
هزبر مشى يبغى هزبراً وأغلبٌ ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا (٤)

أقبل الفتح بن خاقان على الأسد ، فرآه فى معقل حصين وفى قوة منيعة يستطيع أن يفترس حمار الوحش أو بقر الوحش ، فهو فى كل يوم يقدّم إلى أشباله صيداً جديداً ، ولحماً طرياً يسحبه على الرمل فيمتزج بالتراب . وليس فى هذه الصورة من الأسد إلاّ بطولته وافتراسه . لم نلمح فيها شيئاً من أعضائه أو أجزائه ، ولعله قد جعلها ليوازن بين ضرغامين : ممدوحه « الفتح » والأسد المقصود ، فرأى أنهما قد مشى أحدهما إلى الآخر فى شجاعة وبطولة مشى الند للند .

وابن المعتز حين وصف الأسد فعل مثل ذلك ، فصوّره مخيفاً يهزم الجيش ويجرّ كل ليلة فريسة إلى أولاده يفرحون بها ، وهو شجاع جرىء يحسب الألف واحداً ، يُرهب الدنيا زئيره فما يستطيع أحد أن يعدو على الأرض أو يسرى فيها إذا كان هناك :

يزعزع أحشاءَ البلاد زئيره ... ويذهل أبطال الرجال من الذعر
إذا ضمّ قرناً بين كفيه خلته ... يعانى عروساً فى غلائلها الحمر

وهذا جميل فى وصف الحيوان وفريسته كعراك العرس والزوج فى غلائلها الحمر والمتنبى وصف أسداً قتله بدر بن عمار فرسم لونه الأحمر ، وصوّر زئيره

---

(١) العانة : الأتان أو القطيع من حمر الوحش — العقائل : ج عقيلة وهى أكرم كل شىء — السرب : القطيع من الظباء وحمر الوحش — الربرب : قطيع بقر الوحش .
(٢) كل شارق : أى كل مطلع شمس — العبيط : اللحم الطرىء — الرميل : ما خلط بالرمل
(٣) الضرغام : الأسد — الهيابة : الجبان — النكس : الرذل .
(٤) الهزبر : الأسد القوى — باسل الوجه : شديد العبوس .

يبلغ النيل والفرات وعيناه كنار جماعة من الناس ، يعيش وحده عيش الرهبان، لكنه لا يعرف التحليل والتحريم ، فإذا سار وطئ الثرى تيهاً وصلفاً كأنه طبيب يجسّ يد العليل فى رفق :

يطأ البرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا[1]
ويردّ عُفرته إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا[2]
وتظنه مما يزجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولا[3]

وهذا الشَّعر المتجمع على قفا الأسد يصير حول هامته إذا سار وانتصب فكأنه ملك الغابة قد حلى رأسه بالتاج ، وهو لشدة صوته تظنه نفسه كأنه مشغول عنها . وهذه الصورة فيما نرى أبرع ما رسم الأدب العربى للأسد فى لونه وعينيه ومشيته وزئيره وزجرته ، وشعره وهامته ؛ فهى على إرهابها حسية مادية تتجاوب مع رهبة الألفاظ وقوة التعبير .

أما ابن الرومى فقد وصف أسده بأنه غليظ كريه ، وأذنه مائلة كنصف هلال ، تخضع له الأسود حين يزجر ، ضخم شديد ، رحب الصدر ، ذو كاهل أوبر قوىّ الظهر مكتنز اللحم ، وحيد فى الفلاة مخوف ، وفى ذلك براعة وإيجاز .

الذئب

وصف البحترى ذئباً لقيه فى الفلاة فرسم لونه الأسود المغبر وعظامه المقضقضة ومتنه المقوّس ، وذنبه كالحبل يجره وراءه ، قد طواه الجوع فلم يُبق فيه إلا العظم والجلد والروح . تصوّت أنيابه وفيها الموت كما يفعل المقرور حين يرعده البرد . وكان فى الظن أن يرهب الشاعر هذا الذئب الجائع ، ولكنه وقف له كأنهما

---

(١) البرى : التراب — التيه : العجب — الآسى : الطبيب .
(٢) العفرة : الشعر اجتمع على قفاه — اليافوخ : الرأس — الإكليل : التاج على رأس الملوك .
(٣) الزجرة : تردد الصوت وشدة الصياح .

ذئبان ، كلٌّ يحدّث نفسه بصاحبه . فلما عوى الذئب أرسل سهمه إليه فأورده منهل الردى :

سما لى وبى من شدة الجوع ما به ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجدّ يتعسه الجدُّ

وقد أرانا البحترى فى هذه الصورة لون الذئب وعظامه ورهبته وأسمعنا صوته كالرعد ، ثم قتله ، وفيها يتفوق على ما رسم الفرزدق لذئبه ، ويشبه رسم الشنفرى فى وصف اللّون والجوع والهزال ، ولكن البحترى صور عظامه ومتنه وصوت أنيابه فزاد فى الهول والرعب . والشريف الرضىّ لا يخرج فى تصويره الذئب عن هذه الأوصاف والحدود .

* * *

وقد وصف الشعراء العباسيون حيوانات أخرى كانوا يرونها خلال الصيد أو تقع لهم فى الرحلة والأسفار البعيدة ؛ فقد دخل الترف فى حياة الشعب الإسلامى وأصبح يخلو إلى صيد البر والبحر ، فيسافر أو يجرى وراء الظباء والثعالب والأرانب ويقصد إلى الآجام فى صيد الكواسر والأسود ، ويسعى إلى الأنهار ليصيد السمك وطيور الماء ، واشترك الشعراء فى هذه الرحلات أو فى هذا الصيد ، وأرادوا أن يشاركوا فى وصفها فكانت لهم صور فى أدبنا تدعو إلى الدراسة والنقد ، سنعرض لبعضها هنا لأننا لن نستطيع الإلمام بها جميعاً فذلك باب واسع من أبواب الأدب ، تضخم خلال القرن الرابع حتى ما يستوعب ولا يحصى .

النحل

عاش أبو نواس مع الطبيعة وسكر بمحاسنها وشرب فى كل مكان ، فقصد إلى الصيد والطرد والشرب ، وتغنى بما رأى وخلّف لنا لوحات بارعة خلال خمرياته غزله نجد فيها صورة للحيوان لم نعهدها من قبل . فقد رسم النحل فى صورة

لطيفة تغدو وتجيء وتجمع العسل من الأزهار قال :

ترعى أزاهير غيطان وأودية ... وتشرب الصفو من غدر وأحساء
فطسُ الأنوف مقاريف مشمّرة ... خُوص العيون بريئات من الداء[1]
من مقرب عشراء ذات زمزمة ... وعائذ متبع منها وعذراء[2]
تغدو وترجع ليلا عن مساربها ... إلى ملوك ذوى عز وأحياء[3]
كل بمعقله يُمضى حكومته ... فى حزبه بجميل القول والرّاء
حتى إذا اصطك من بنيانها قرص ... أروينها عسلا من بعد إصداء[4]

فالنحل ترعى أزاهير الغيطان والأودية وتشرب الصافى من الغدران ، وهى فطس الأنوف بشعة الوجوه غائرة العيون ولكنها سليمة من الداء ، فيها الحبلى وفيها ما ولد منذ قليل وفيها ما يتبعها ولدها وفيها العذارى . وهذه المملكة كل حكومة فيها تعمل برأى وقول ، ولكنها مع ذلك تبنى مجتمعة قرصاً من العسل تقدمه شهداً حلواً للناس . وهذه الصورة بارعة فى الديمقراطية وبناء الممالك لا تشبهها صورة فى الآداب الأخرى .

الكلب

ووصف أبو نواس كلب الصيد ، فصوّره تصويراً مفصّلا لم نعهده عند الجاهليين ، فقد رأينا أنهم يسمعوننا نباحه وهجومه وتضحيته القاسية حين يموت فى فكى الطريدة ؛ ولكن الشاعر العباسى يصف عيشه فى بيت سيده وقد أنس إليه ، ويرسم من أجزائه ما وصف الشعر الجاهلى من الخيل والنياق ، قال أبو نواس .

---

(١) مقاريف : غير حسان الوجوه — خوص العيون : غائراتها .
(٢) المقرب : التى قرب ولادها — العائذ : الحديثة النتاج من الظباء — المتبع : ما يتبعها ولدها.
(٣) المسارب : المراعى .
(٤) اصطك : تم وكمل — القرص : ج قرصة وهى فى الأصل القطعة من العجين .

أنعتُ كلباً أهلُه فى كدّه قد سعدتْ جدودهم بجده
وكل خير عندهم من عنده يظلّ مولاه له كعبده
يبيت أدنى صاحب من مهده وإن غدا جلّله ببرده
ذا غرة محجلا بزنده تلذ منه العين حسن قدّه
تأخير شدقيه وطول خدّه تلقى الظباء عنتاً من طرده

فهوحبيب لسيده أثير عنده بفضل سعيه وكده ، يبيت أقرب الناس إلى مهده فإن أصابه برد جلله ، وهو ذو غرة محجل بزنده ، يلذ الرائى حسن قدّه ، فشدقاه عريضان وخدّه طويل ، وهو شديد على الظباء فى الطراد . وهذه الصورة جميلة تصف جسم الكلب وأعضاءه وعمله فى الصيد فتعيد إلى الذاكرة وصف الشعراء الجاهليين للخيل وعنايتهم بها وحبهم لها .

الديك

ووصف أبو نواس كثيراً من الديكة ، فأحسن فى وصفها لما كانت تهيجه فى الصباح إلى الصبوح وتدفعه إلى الشرب وتنبهه إلى طلوع النهار ؛ فقال :

أنعتُ ديكاً من ديوك الهند أحسن من طاووس قصر «المهدى»
أشجع من عادى عرين الأسد ترى الدجاج حوله كالجند
يقعين من خيفته للسفد له سُقاع كدوى الرعد[1]
منقاره كالمعول المحد يقهر من ناقره بالنقد[2]
عيناه منه فى القفا والخد ذو هامة وعنق كالورْد
له اعتدال وانتصاب قدّ كأنه الهداب فى الفرند[3]

(١) السفد : نزو الذكر على الأنثى – سقاع : صوت .
(٢) النقد : ضرب الطائر بمنقاره .
(٣) الهداب : الطرف مما يلى طرته – الفرند . السيف .

فهذا الديك الهندى جميل شجاع ، يقف فى الدجاج كما يقف الملك فى رعيته[1] ، منقاره كالمعول يقهر به خصمه ، وهامته وعنقه كالورد الأحمر ، وأما قامته واعتداله فكأنهما السيف المستقيم ، وصوته كدوى الرعد ، شديد الهيبة مطاع .

الفهد

وابن المعتز ، جاراه فى أكثر أوصافه للصيد ، فصوّر الفهد وكان يقوم عندهم مقام الكلب فقال :

ولا صيد إلا بوثّابة تطير على أربع كالعذَب
وإن أطلقت من قلاداتها وطار الغبار وجدّ الطلب
فزوبعة من بنات الرياح تريك على الأرض شدا عجب
تضم الطريد إلى نحرها كضمّ المحب لمن قد أحبّ

وهكذا ترى أنه أسبغ على الفهد صورة حبيبة تصف حبه لهذا الحيوان وفرحه فى الصيد بما يصطاد ، وسرعته فى اللحاق بالطريدة كأنه يطير على أربع فيثير الغبار كزوبعة من بنات الرياح . وحين يعود الفهد منتصراً يضم الطريدة إلى نحره كما يضم المحب حبيبته . وهذا تصوير بارع لابن المعتز لا تنقصه الحياة ولا يتخلف عنه النشاط والحركة .

الصقر

ووصف ابن المعتز الصقر فقال :

(١) صور الصنوبرى ديكه بصورة قريبة من هذه فجعله عقيد الملك من نسب كسرى وقد عقد على رأسه التاج ، يلبس المطرف ويرخى الذوائب .

وأجدل لم يخلُ من تأديب يرى بعيد الشيء كالقريب[1]
يهوى هُوِىّ الدّلو فى القليب بناظر مستعجم مغلوب[2]
كناظر الأقبل ذى التقطيب رأى أوزاً فى ثرى رطيب[3]
فطار كالمستوهل المرعوبِ ينفذ فى الشمال والجنوب[4]

فاستخدم الصور الجاهلية القديمة فى سرعة الصقر إذ شبهه بهوىّ الدلو فى البئر أو نظر الأحول إلى الأوز حين يطير إليها كالمرعوب . وعمد إلى الرجز واللفظ البسيط .

ورسم الشاعر كذلك صيد السمك ، فوصف الجدول والحصى والزهر والشبكة والشصّ ، فرأى النهر فضياً والحصى نقيا والتربة ذات ثرى وضىّ ، والزهر مبتسما . وقد اصطاد السمك بشبكة لها مقلة تلحق بالقصىّ من الحيوان . وقلده فى ذلك السرىّ الرفاء .

البعوض

ووصف ابن المعتز البعوض ، فحدّث عن أثره فى جسده فقال :

بتُّ بجهد لا أذوق الغمضا مسهداً يضرب بعضى بعضاً
قد قطع القرقس جلدى عضا منتهشا بقرسه منقضا[5]
كشرر القدح إذا ما ارفضا يدمن إسخاطك حتى ترضى

ولا تمالك من الضحك حين تتصور المسهّد يضرب بعضه بعضاً ، وحين

---

(١) الأجدل : الصقر .
(٢) القليب : البئر — الناظر المستعجم : الذى ينظر إلى الشىء كأنه يعرفه .
(٣) القبل : الحول فى العين .
(٤) المستوهل : الفزع .
(٥) القرقس : البعوض . — القرس بكسر القاف : صغار البعوض .

يقطع البعوض جلد النائم عضاً وينقض كشرر القدح . ولكن هذا الضحك مؤلم لأنه يصور أكثر ليالى الشرق فى الريف خلال الصيف .

الطير

وابن الرومى وصف الطير شرّعاً على حوض المنية ، وأصدقاؤه الصيادون يهمّون بصيده ضاحكين هازلين معهم آلاتهم وقسيهم ، والطبيعة تبكى لمصرع هذا الحيوان وما ينتظره على أيدى الصيادين فيقول :

فظل صحابى ناعمين ببؤسها   وظلت على حوض المنية شرّعاً
وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت   على الأفق الغربى ورساً مزعزعاً
وودّعت الدنيا لتقضى نحبها   وشوّل باقى عمرها فتشعشعا

ونحن نرى فى صورة الطبيعة والصيادين رسماً بديعاً مؤثراً أعاره ابن الرومى من نفسيته وحزنه وحبه للحيوان وشعوره الرقيق حياله .

وقد وصف الصابى البيغاء محبوسة فى القفص كالغادة العذراء وما لها من ذنب فى هذا الحبس إلا أنها ضحية الحب ، قد تميزت بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان . ورسم السنجاب فجعله خفيفاً على النفوس تشتهى قربه العيون كأنه أخو الشباب .

وصوّر الصنوبرىّ الورشان ، ذلك الطائر المغرد ، الذى يودع المسامع ما شاءت وما لم تشأ من الألحان ، فجعله فى رداء من سوسن وقميص مزرّر فى ظهره يبدو فى لون السماء ، وجيده فى لون الفرقدين ، وهو يدعو الصبح لأنه يملّ الكرى فيمدّ صوته حين يمدّ جيده . ورسم القمرى فى لون الغمامة يستغنى بهديله فى غسق الدجى عن مطرب الأوتار .

الهر والجرذان :

ولم يغفل الصنوبرى عن الهر والجرذان ، فقال بأن الجرذان خلقت منذ الأزل للعبث والفساد والأذى والخراب تنقب فى الأرض والسقف والحائط وتأكل كل شىء وتشرب كل ما ترى وتقرض الثياب . أما الهرّ فهو ليث الغاب كالقنفذ فى ازبراره وكالذئب فى افتراسه والحية فى انسيابه، ينصب طرفه أبداً قبل الزوايا وإزاء السقوف والأبواب ، ينتضى ظفره فى حربه :

يسحبُ الصيد فى أقل من اللم ح ولو كان صيده فى السحاب
غاسل وجهه بإحدى يديه مستعين فى غسله باللعاب
ويعى الصوت إذ يعى فى طوىّ وهو يرنو إذا رنا من شهابِ

ولهذا الهر قرطق وقلادة وخضاب ، كما نرى للهرة فى عصرنا بالبيوت العربية ، وهو صاحب بل أعزّ الأصحاب وأوفى الأحباب .

وهناك حيوانات أخرى وصفها شعراؤنا ، فقد رسم أبو نواس فى ديوانه الثعلب والبازى والعنكبوت ، وصوّر غيره الذباب والبغال والحمير والضفادع ، وللحية فى ديوان ابن المعتز وصف لطيف شبهها فيه بالغصن يعلوه نور وورق ، ولكننا لن نعرض لها هنا ، لضيق الصفحات ، مكتفين بما أوردنا من صور رسمها هؤلاء النوابغ فأبدعوا حتى لكأنهم يرسمون بالريشة والألوان ألواحاً لو عرضت فى متاحف العالم لحازت السبق وربحت الخلود .

ونحن حين نوازن بينهم وبين أجدادهم نجد أنهم اتخذوا أول الأمر صور الجاهليين سنناً يسيرون عليه ، ثم أفاضوا فى الاختراع والابتداع ، فالتمسوا ألوانهم من حضارة الفرس وحياتهم الجديدة ، فجمعوا ثروة القديم إلى ثقافتهم المكتسبة ، وبلغوا ذروة وقف عندها الوصف فقصرت بعدهم أجنحة الشعراء فى التحليق حيناً من زمن ليس بالقصير .